



ضرورة هذا الدرس في عصرنا

تكلمنا في العدد الماضي عن المراد «بمقابلة الآداب» ، بعد ان حددنا الأديب . وذكرنا القوائد المتعددة الناجمة عن درس تاريخهم درساً معقولاً . وها نحن نبدأ بشرح حاجتنا الماسة اليوم الى درس مقابلة الآداب ، اذا اردنا ان نبني نهضتنا العصرية على أسس ثابت يستند الى مبادئ الثقافة العامة ، فنطلع على منتوجات العقول الاجنبية المختلفة ، ونجاريها آخذين منها ما يفيدنا ، نأخذ ما يورثنا في طريقتنا ، او يشد بنا عن غايقتنا . وان هذه الحاجة تظهر من المقابلة التالية :

لنأخذ شاباً من اوساط المتعلمين في فرنسة مثلاً ، تاجرأ يصرف وقته بتنضيد بضاعته وعرضها على الزبائن ؛ او وسيطاً تجارياً (قومسيونجياً) يقضي نهاره بين ادارة الجمرك والمخازن من كبيرة وصغيرة ، او مستخدماً في احد المصارف يُذيب دماغه فوق ارقام سوداء ، او موظفاً في احدى دوائر الحكومة ، سواء كان في العاصمة او في غيرها من المدن . ولنأخذ مقياساً للمطلومات . ولنفرض اننا تمكنا من قياس علم هذا الشاب ، الذي هو من اوساط المتعلمين في فرنسة ، فاذا رُى ؟

زى او لا ان في حياته أساً متيناً من تلك الثقافة العامة التي يلزم كل انسان ان يُتقنها ، كي يبني عليها في المستقبل ما يطمح اليه من قصور الآمال وصروح الاحلام . زى انه قد درس كل مظاهر ادب أمته على اختلاف عصورها ، ولم يكتفِ بذلك ، فأضاف الى الفرنسية لغة عصره ، هي الانكليزية او الالمانية عادةً ، والم بشيء كافٍ من آدابها . زى انه قد ألم ايضاً بشيء لا بأس به من آداب اليونان والرومان ؛ فهو ، على الاقل ، عارف بمن كان هوميروس ، وسوفوكل ، وثرجيل ، وهوراس ، وغيرهم . وقد يكون قرأ بعض الشيء من منظوماتهم ؛ كما قد يكون قرأ الشيء الكثير من آثار دانتي ، وشكسبير ، وسرفانتس ، وغوته ، وشلر ، وتولستوي ، سواء كان ذلك بلغاتهم او بالترجمات الوفيرة في اللغة الفرنسية .

ثم أتفطنون ان ذلك الشاب ، اذا انتهى من عمله اليومي ، لا يفتح جريدته فيطلع من خلال اسطرها على الحركة العامة في الكون من سياسية وعلمية وادبية وفنية ؟ وقبل ان ينأى ، الا يفتح كتابه - سواء كان رواية او اثرأ ادبياً علمياً - فيغذي عقله بمنتجات الكتاب الحديثة .

ثم أترون ان ذلك الشاب ، اذا خلا برفقائه ، لا يتحدث اليهم بما عرفه عن آخر مؤلفات هنري بورديو ، او بيير بنوا ، او من شتم من الروائيين ؟ هذا اذا كان ميلاً الى القصص فيجب . امأ اذا كان لديه بعض الطموح الى الادب ونقد ، افلا تتصورون انه يتناظر واثام في آراء بروس ، وكوكر ، وموردياك ؟ الا تخالونه ييسط بشيء من الحماسة او البرودة ، طريقة بول كلودل او يول فاليري في النثر الشعري ، او آخر مجموعة شعرية لفرنسيس جايس ؟ او يحمل على نظرية بريوند في الشعر الخالص ، او يدافع عن نظرية جوس في الانشاء الشفاهي ؟

هذا هو معدل التهذيب العقلي في شاب افرنسي منصرف عن الآداب في أعماله اليومية . ولم اذكر من معارفه ألا الوجهة الادبية وهي التي تهتنا ، فضربت صفحاً عن العلوم والفنون والآراء الاقتصادية والسياسية وما تجره من الدروس والمعارف .

ولا تخالوا ان امثال هذا الشاب نادرو الوجود في فرنسا . لا لعمري بل هم عديدون ، ولم ابالغ اذ جلتهم من اوساط المتعلمين فيها . وألا فكيف يمكننا شرح رواج الكتب والمطبوعات . ونحن اذا صرفنا النظر عن القصص المطبوعة بثبات الالوف والتي لا يهتنا امرها كثيراً ، نرى ان الكتب الادبية والفكرية ، حتى القريبة بآراء مؤلفيها الفاضلة ، تنفق بسرعة عجيبة . فلا تظهر رواية من قلم پول بورجيه - وفي ايسر رواية لبورجيه من الافكار والدروس ما يُعادل مضمون عشرة مجلدات من كتبنا - حتى تُعاد طبعتها ؟ ولا يظهر كتاب لپول كلوديل - ومن قرأ شيئاً منه عانى ما يلاقيه المطالع من صعوبة تفهمه - حتى تندر نسخه ؟ وهذه مؤلفات برغسون الفلسفية بعضها في طبعاتها العشرين . وبعض ترجمات مؤلفات نيتشه ، الفيلسوف الالماني ، بلغت ما فوق الاربعين من الطبعات . اما مؤلفات دوستان الشعرية وما شاكلها فيلزم عد نسخها بثبات الآلاف وبانصاف الملايين .

ثم قد يكون ذاك الشاب ميالاً الى الاستغراب اني محبة الشيء الغريب ، وهي كلمة اعرب بها لفظة (exotisme) ، واكثر الفرنسيين ميالون الى ذلك ، فيلتهم روايات بيير لوتي عن تركية ، وبعض الجزر المنفردة ، وما ينشره ارباب المكاتب اليوم عن الهند والصين وعادات سكانها . او يتلقف ما يعث به فرنس توسان من الشعر المنشور وينشره على انه مترجم عن العربية ، ويسرع الى اساطير ابنة هنري بوردو وسريم هاري وهما تطبعانها برهتين انها عرفقا الشرق . والشرق من احدث الازياء الادبية في فرنسا .

هذا مجمل ما يظهر لنا من المعارف في دماغ شاب من اوساط المتعلمين في فرنسا . وقد اطلت في وصفه قصد ان اظهر التفاوت بينه وبين من ساقبله به . فلنأخذ الآن علماً من كبار علمائنا ، او من فحول شعرائنا ، او من مشاهير كتابنا ، على شرط ان تفهم بلفظة « العالم » و « الشاعر » و « الكاتب » ما يفهم به ارباب التنشئة القديمة في اللغة العربية ، اي اولئك الذين يضجون المطاني على مذابح الالتاظ ، ويمخثقون الحياة في نمش القوالب الفارغة ، ويمخثقون الافكار في نواويس الجسود . لنأخذ عالماً او شاعراً او كاتباً من هؤلاء ، ولننقش

دماغه بقياسنا المعروف . فاذا زى ؟

قد زى قوائد كثيرة ، فوظلة مع جميع شواذاتها ، ومعاومات وافرة في تاريخ الآداب ونوادير الادباء ، وأحكاماً نقدية في قوالب مصوغة قد تكون رثانة وقد تكون طنانة . ولكنها جميعاً بعيدة عن الحياة لانها نشأت وماتت في بيئة واحدة ؛ لانها لم تتجدد بشي . من المفذيات الخارجية ، بل كانت تجتر وتترك ما تجتره ، حتى قضت كما نشأت لم تنم ولم تنضج ؛ ولم يبق ألا قناعها الجاف يحافظ عليه اربابه كائن ما يكون من الذخائر .

ولا تقف التنشئة القديمة في درس اللغة عند هذا الحد من المصائب ، وهي وحدها كافية للاقلاع عنها ، بل تتجاوزها الى نوع من ضيق العقل ، وجود الذهن ، وقلة الذوق ، والسهر عن مواقع الكلام ، يرافقه لون من التعصب المذموم يدفع اهله الى الخط من شأن كل ادب غير عربي . وهو تعصب حرمنا الكثير من القوائد في العصور الحالية فيجدر بنا ألا نؤخذ به اليوم . تعصب قدينا مئات السنين الى مستوجبات لثنا وحدها ، نلوكها وفلوكها ، فلا هي تغدينا ولا نحن نسيغها . وزى لغات الغير حرة طليقة ، تتناول المواد من حيث واقعتها ، وتستيعر الالفاظ من كل شعب ولغة . تعذب ربطننا الى رجال الايل في بادية قاحلة ، نير بغيرها وتقف بوقوفها ، بينا كان الغير يمر بنا على سياراته مرور الطير ، ويرف من فوقنا بطلياراته زفوف الريح ، فينظر اليها بيزه وإشفاق . امأ نحن فنغض عيوننا عن مرأى سرعته ، ونصم آذاننا عن أزيز مركباته ، ثم نمر ايدينا بجنو على مطايانا ، ونذوق اطمائنا « نظوي اليد طي » وننشد باكين اطلالنا ودمتنا ، فنسكر بتلك الذكريات ونقول : ليس في الكون مركبة إلا الناقة ، وليس عند الاعاجم ادب وشعر .

شيعنا ، يا اسيادنا « الاعلام » ، من الذميل والوخد والارقال . وليس بإمكاننا بعد ان نصرف اربعين يوماً برفقة النجب والابكار والمها والابوال حتى نصل الى بغداد . فنحن في عصر ضاق الزمان فيه عن مثل هذا البث الفارغ . فاذا لم نجار الناس سبقونا الى محجة الحياة ، وظللنا نندب الماضي ،

ونبكي من ذكر الاحبة والمنازل بين المراض والاسطان ... لا ! نحن بحاجة الى الحياة ، نحن بحاجة الى التجدد ، نحن بحاجة الى ادب يكون مرآة مجتمعا وألا كان فاسداً ، سطحياً ، وقتياً ، كذلك الطحلب الذي ينبت بسرعة فوق الدمن وفي الزوايا الرطبة ؛ ولكن ما هو ان ترشقه اشقة الشمس حتى يذوي ويتلاشى . نحن بحاجة الى الاحتكاك بالاعاجم ، نعم بتلك الأمم التي احترما العرب والتي لا سبيل لخلاص لقتنا اليوم ألا على يدها ، نحن بحاجة الى درس آدابها ، ونفهم اساليب الكتابة فيها ، حتى نخاطب آدابنا من الحمول ، ونعلم مؤلفينا اساليب الكتابة . نحن بحاجة الى السيارة لتقطع بها تلك الأبعاد التي تفصلنا عن الحياة .

اما اذا شا. اسيدانا المحافظون ، المقلدون ، المحققون كل ما هو اعجبي ان يظنوا متمسكين باذيال إبليس كي لا يجيدوا عن « الصراط المستقيم » فأنا تترس لهم . فالأمر ان يفسحوا لنا الطريق صاغرين ... وأما ... على ان هناك حلاً آخر : تقدم لهم سياراتنا ، ونصعدهم فيها مع نوقهم وجالهم . فيضربون ورضى ...

من مثل هؤلاء . الغير على الادب العربي ، ومن مثل هؤلاء . المحققين كل ادب غير عربي ، يلزم ان نحذر في درس الادب العربي . ومثل هؤلاء . الغير وهؤلاء . المحققين ، كثيرون لسوء حظ الادب العربي . وبمثل هؤلاء ، كان يفكر الدكتور طه حسين ، عندما كتب تلك المقدمة الجريئة لذلك الكتاب الجريء . فقال :

« وكيف السبيل الى ان يُدرس الادب العربي درساً صحيحاً اذا لم تُدرس الصلة المادية والمعنوية بين اللغة العربية واللغات السامية ، وبين الادب العربي والادب السامي ؟ وهل هناك سبيل الى ان يُدرس الادب العربي دون ان تفهم التوراة والانجيل ؟ وهل تظن ان بين شيوخ الادب في مصر من قرأ التوراة او قرأ احد الانجيل ؟ وكيف السبيل الى درس الادب العربي اذا لم ندرس اللغة اليونانية واللاتينية وآدابها ... ولم تتبين مكانة ادبنا العربي بالقياس الى هذه الآداب اليونانية واللاتينية ؟ وهل تظن ان من شيخ الادب في مصر

من قرأ إلياذة هوميروس واينياذة فرجيل فضلاً عن تمثيل الممثلين ، وغنا .
المغنين ، وخطابة الخطباء ، وحرار المتحاورين .

« أليس من شيوخ الادب في مصر من يعلم طلابه الآن ان ليس لليونان ادب ولا شعر ولا خطابة كما لأهل الضاد ؟ وكيف السبيل الى درس الادب العربي اذا لم ندرس اللغات الاسلامية المختلفة ولاسيا التارسية منها ، ونتبين ما كان لهذه اللغات وآدابها من تأثير في أدبنا العربي الذي لم ينشأ في برج من العاج وانما تأثر بالآداب المختلفة وأثر فيها ؟ وهل تظن ان من شيوخ الادب في مصر من قرأ الشهامة او الم بتي . من شعر الحيام او من شعر السعدي او الحافظ ؟ وكيف السبيل الى درس الادب العربي اذا لم ندرس اللغات الاوربية الحديثة ونتبين تأثيرها في ادبنا الحديث ؟ ثم كيف السبيل الى درس الادب العربي اذا لم نأخذ بمناهج البحث العلمي الحديث وندرس آدابنا كما يدرس الفرنسيون والانكليز والامان آدابهم ؟ ... »

« وكيف السبيل الى درس الادب العربي اذا كان الطالب يجهل ، كما يجهل طلابنا وشيوخنا ، آيات الادب الاجنبي قديمه وحديثه ، هذه الايات التي أثرت في حياة الانسانية كلها والتي تغلغل العلم بها في طبقات الشعوب الغربية كافة . »^(١)

هذا رأي اديب مصري كبير عانى درس الادب على شيوخته ، وعانى تدريسه ايضاً . فينتج من قوله انه اصبح من اللازم في عصرنا ، بل من الضروري ، مباشرة هذا الدرس الجديد المفيد الذي ندعوه « مقابلة الاداب » .
(للبحث صلة)

